تقديم

عندما يعتزم المرء قراءة كتاب من تأليف الدكتور أحمد داود أوغلو يكون ـ دون أن يقصد وقبل أن يعرف ـ قد قرر أن يثرى ثقافته بمسلسل من الأفكار الجديدة، وأن يُعَرِّض طريقته فى التفكير لتحد بالغ الشدة، وأن يعمق فى الوقت نفسه وعيه بكثير من الظواهر الاجتماعية والسياسية والحضارية التى ربما لم يلاحظها من قبل، وربما لاحظها وظن أنه أدرك مغزاها، ولكن ما إن يطالعها فى كتابات أحمد أوغلو حتى يدرك أن لها أبعاداً أخرى تفوق أهميتها ما كان يعرفه عنها من قبل، وسرعان ما يقتنع بأن عليه إعادة النظر فيها، وتجديد رؤيته لها، وتوسيع أفقه المعرفى بشأنها. ليس هذا فحسب، وإنما سيجد القارئ نفسه قد أصبح أكثر قدرة وجرأة على ممارسة «النقد الذاتى» فى أفكاره السابقة، و«النقد» فيما يقرأه، بما فى ذلك كتاب أحمد داود أوغلو؛ الذى يشحذ همة قارئه، ويدفعه لبذل كثير من الجهد قبل أن يتفق أو يختلف معه.

ولكن مثل هذه الغنائم الفكرية والعقلية لها ثمن، على قارئ أحمد داود أوغلو الذى يريد الظفر بها أن يدفعه مقدمًا، لا مؤجلاً ولا نسيئة. عليه أولاً أن يتأهب للقراءة، فيخصص لها وقتًا مناسبًا يكون الذهن فيه صافيًا، والبال غير منشغل. وعليه ثانيًا أن يتهيأ للغوص فى أعماق الفلسفة والتاريخ والسياسة والدين فى آن واحد، مهما كان موضوع الكتاب. وعليه ثالثًا أن يتحلى بفضيلتى الصبر وطول النفس وهو يتابع الفكرة الواحدة من منظورات متباينة الرؤى، ومقارنات متعددة الزوايا. وعلى البعض أن يحتسب عند الله القراءة الأولى للكتاب ـ على الأقل ـ فى سبيل إدراك مقصده من القراءة الثانية.

ينطبق ما قلناه على كتابات أحمد داود أوغلو جميعها، بما فيها هذا الكتاب الذى نقدمه إلى قراء العربية، وعنوانه الأصلى بالإنجليزية هو:

«Civilizational Transformation And The Muslim World» «التحول الحضارى والعالم الإسلامى». وقد اخترنا أن نجعل عنوان هذه الطبعة المعربة هو «العالم الإسلامى فى مهب التحولات الحضارية»، وذلك للدلالة على الفكرة الأساسية التى يعالجها المؤلف، وهى أن العالم الإسلامى كان ولا يزال فى مهب هذه التحولات، التى تتقاذفه منذ ما يزيد على قرنين من الزمان. وبالرغم من ذلك، ومع قسوة الهجمات التى شنتها حضارة الغرب، ولا تزال تشنها على العالم الإسلامى ملحقة به دمارًا ماديًا هائلاً، فإنها فشلت فى تبديل «الإدراك الذاتى» - على حد تعبير أحمد أوغلو - لدى إنسان الحضارة الإسلامية؛ فهو لا يزال متمسكًا برؤيته المتميزة للكون والحياة، ولأخيه الإنسان، وللخالق سبحانه وتعالى. وتحتل «الحرية» موقع القلب من هذا التصور؛ ليس باعتبارها حصيلة قوة مادية ما، وإنما لكونها نابعة من صميم الوعى الذاتى، الذى أسسته المعرفة المستمدة من الوحى، على نبذ العبودية منذ اللحظة الأولى التى ينطق فيها الإنسان بشهادة أن لا إله إلا الله.

ومن أهم القضايا التى يؤكد عليها أحمد داود أوغلو عبر فصول هذا الكتاب أن أزمة الحضارة الغربية الراهنة لا يمكن حلها من داخلها، وخاصة بعد أن وصلت إلى مرحلة متطرفة من الاستعلاء وإنكار الحضارات الأخرى وثقافاتها، على النحو الذى تعبر عنه نظريات النهاية (منها مثلاً: نهاية الدين، ونهاية الأيديولوچيا، ونهاية التاريخ)، التى يتبناها كبار مفكريها وفلاسفتها. ويكشف فى هذا الكتاب أيضًا عن أن مبادئ التعددية الثقافية والسياسية، والقيم الخاصة بحقوق الإنسان، والتسامح، والحريات العامة ليست ذات مضمون إنسانى عام ومحايد ينطبق على جميع البشر، بقدر ما هى متحيزة - نظريًا وتطبيقيًا - للإنسان الغربى، حتى ولو أتى هذا التحيز على حساب إنسان آخر لا ينتمى للغرب، أو يرفض أن يكون تابعًا لحضارة الغرب.

يأخذنا أحمد داود أوغلو إلى أعماق النظريات الفلسفية والسياسية والاجتماعية الغربية، ويحلل مواقف الدول الكبرى وسياساتها العالمية منذ البدايات الأولى لتأسيس النظام العالمى الراهن قبل قرنين من الزمان تقريبًا، ليخلص إلى أن الخروج من أزمة الحضارة الغربية فى وضعها الراهن يتطلب جهودًا جبارة من داخلها؛ عبر إعادة النظر فى أصول رؤيتها للعالم، ومبادئ النموذج المعرفى الذى تتبناه، ومن خارجها عبر تجديد رؤية بديلة للعالم، وتطوير نموذج معرفى له مضمون إنسانى شامل. وهنا تقع المسئولية الكبرى على الفكر الإسلامى الذى يملك هذا البديل الحضارى. فبالرغم من

أن العالم الإسلامى كان أكثر المتضررين من طغيان الحضارة الغربية، ومع أنه لا يزال فى مهب التحولات الحضارية التى يقودها الغرب المسيطر، فإن هذا العالم الإسلامى أصبح مدعوًا - أكثر من أى وقت مضى - لاستعادة دوره الحضارى العالمى؛ ليس لإخراج الشعوب والمجتمعات الإسلامية من أزمتها فحسب، بل للإسهام أيضًا فى إنقاذ الشعوب والمجتمعات الغربية، وغيرها من أمم العالم، على النحو الذى يؤكده أحمد داود أوغلو فى هذا الكتاب، وفى غيره من أعماله الأخرى، وبخاصة كتابه المهم «النماذج الحضارية البديلة»، وأيضًا فى كتابه ذائع الصيت بعنوان: «العمق الاستراتيچى: مكانة تركيا الدولية»، ولأهمية هذا الكتاب تم اعتماده ككتاب مرجعى لطلبة الكليات العسكرية التركية، وهو يركز على تحليل دور تركيا المعاصرة فى السياسة العالمية، منطلقًا فى تحليله من رؤيته الإسلامية الحضارية، موضحًا كيف يمكن لتركيا أن تستعيد مكانتها باعتبارها «دولة مركز»، وليس «دولة طرف»، أو «دولة هامش»، وهو الوضع الذى حوصرت فيه منذ إسقاط الخلافة العثمانية وتأسيس الجمهورية التركية.

لن أستطرد أكثر من ذلك فى تحليل أطروحات أخى وصديقى الدكتور أحمد داود أوغلو، وسأترك للقارئ الكريم أن يبحر بنفسه فى هذا الكتاب القيم، فقط أود التأكيد على أن الرؤية التى يقدمها أحمد داود أوغلو تتسم بالأصالة والعمق من جهة، والشمول والقدرة على ابتسار أحداث المستقبل من جهة أخرى، ومن ثم فكتابته ليست كتابة أكاديمية جافة، ولا هى كتابة برنامجية مرنة؛ إنها مزيج من هذا وذاك، ودليلنا هو نجاح الدكتور أحمد فى أن يصبح أول ديپلوماسى برتبة سفير فى وزارة الخارجية التركية من خارج النخبة العلمانية المهيمنة على هذه الوزارة منذ عهد الجمهورية الأتاتوركية. ودليلنا أيضًا هو نجاحه فى أن يقدم نموذجًا نادرًا - فى التاريخ الحديث لبلدان العالم الإسلامى على الأقل - يجمع بانسجام بين دور رجل العلم والتنظير والتأصيل الفكرى والفلسفى، الذى يقوم به هو شخصيًا، وبين رجل السياسة والتنفيذ العملى، الذى يقوم به رجب طيب أردوجان زعيم حزب العدالة والتنمية ورئيس الحكومة التركية منذ خريف ٢٠٠٢، وعبد الله جول وزير خارجيتها.

الدكتور أحمد داود أوغلو من مواليد سنة ١٩٥٩، وهو يعمل أستاذًا للعلوم السياسية فى جامعة بيكنت التركية، وسبق له العمل فى عدد من الجامعات داخل تركيا وخارجها. كما أنه صاحب مؤسسة بحثية وثقافية متميزة فى اسطنبول اسمها «علم

وصنعت وقف»، تقوم بجهد منظم فى تطوير البحوث والدراسات الاستراتيجية والسياسية والحضارية بشكل عام، وفيما يهم تركيا بشكل خاص. وقد تعرفت على الدكتور أحمد قبل عشرين عامًا تقريبًا عندما حضر إلى القاهرة فى زيارة علمية فى الثمانينات من القرن الماضى! . عندما رأيته أول مرة مع أخى وصديقنا المشترك الدكتور رجب شان ترك ـ أستاذ علم الاجتماع حاليًا ـ أدهشنى ذكاؤه الفطرى، وذهنه المتوقد، ونهمه للقراءة، وحبه للمعرفة، وزهده فى الكلام، رغم أنه يجيد إلى جانب التركية اللغات الإنجليزية، والألمانية، والفرنسية، وقدرًا لا بأس به من الإيطالية والعربية! . كان يطلب منى أحيانًا الذهاب لسور الأزبكية ـ قبل نقله من مكانه القديم فى ميدان الأوبرا ـ ويظل يفتش فى أكوام الكتب ساعات طويلة، حتى يعثر على ما يرغب فى شرائه، ولم يكن يشترى إلا أمهات الكتب والنصوص الفكرية الكبرى. اشترى مرة نسخة قديمة من رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى، ونسخة من رائعة ابن طفيل «حى بن يقظان»، و«رسالة فى الحكم المدنى» لجون لوك، واكتفى بأن قال لى: هذه كتب مهمة.

أول دراسة قرأتها له كانت عن ظاهرة التحول الفكرى فى تركيا وهجرة بعض رموز النخبة التركية من العلمانية إلى الإسلام، وقد نقلتها إلى العربية ونشرتها صحيفة «الشعب» المصرية فى عددين متتاليين الأول بتاريخ ٢٦ يوليه والثانى بتاريخ ٢ أغسطس سنة ١٩٨٨ . وقد تعلمت منها بقدر ما عانيت فى تعريبها. وتعلمت مرة أخرى وكررت المعاناة فى دراسة له عن رؤى العالم المتباينة وأثرها على النظريات السياسية ـ وسوف تصدر قريبًا عن مكتبة الشروق الدولية ـ وهذه هى المرة الثالثة مع هذا الكتاب. ولا يفوتنى هنا أن أنوه بالجهد الكبير الذى بذله الأستاذ عبد الرحمن الشماع فى إعداد مسودة هذه الترجمة، ولست أشك أن ما تحمله من مشقة كان فوق طاقته، فله خالص الشكر والتقدير. أما المهندس عادل المعلم صاحب مكتبة الشروق الدولية فسوف أظل أذكر أنه لم يتردد لحظة عندما عرضت عليه نشر هذا الكتاب، وأبدى ترحيبًا وحماسًا كبيرين ينمان عن وعى عميق برسالة الناشر ودوره فى خدمة العلم والمعرفة، فله منى خالص الشكر، وله من الله أفضل الجزاء وأحسنه.

د. إبراهيم البيومى غانم

القاهرة ـ غرة ذى الحجة ١٤٢٦

٢٠٠٦/١/١